

(تمظهرات المفارقة الحيوانية في السردنة البوطاجينية)

د/ سليمان لبشيري

جامعة محمد خيضر - بسكرة -

ملخص:

تتمظهر المفارقة الحيوانية في السردنة البوطاجينية في حكايا القصص المسيجة بأحبال الظاهر والضامر، فنلاحظ أنّ الأضمومات ظاهرها سرد رمزي لهويّ، وضامرها نصح سياسي حكيم. والمفارقة على لسان الحيوان هنا تقوم على التلميح والتّصريح في الوقت ذاته؛ فالظاهر/المسرود شيء، والضامر/المقصود شيء آخر. وهكذا تجري السيولة البوطاجينية عبر الحكي الحيواني؛ من خلال وجود شخوص حيوانية ظاهرة في مقابل شخوص إنسانية ضامرة. فكأنّها تَنَسَّرَدُنْ وتَنَسَّرُطُنْ وتَتَأَنَسُنْ وتَتَأَلَسُنْ بلسان الراوي/الذات البوطاجينية.

لجأت الذات البوطاجينية إلى عوالم الحيوان لأنسنة حياتها من جهة، ولإفضاء وإضفاء أبعاد دلالية خصوصية أعمق علاقات الناس بتمثيلها بالعلاقات السائدة بين الحيوانات، إمعاناً في فضح الرّيف المتسرّطِن والمتسرّدين في علاقات الإنسان بأخيه الإنسان، من مكرٍ وغدرٍ وقهرٍ وجشعٍ وطمعٍ وقمعٍ. إنّ أنسنة عالم الحيوان ممزوجة بجرععات من السّخرية الضّامرة تنحو منحى التّعريّة والكشف، تعرية ما يُمور تحت السّطح من قمعٍ وطمعٍ وقهرٍ، بغية تفكيك وخلخلة أسرار السّلطة والسّيادة وممارستها المتوالية والمتواترة في الإخضاع عن طريق الحقرة والتّهميش، ولهذا تتوالى الرّموز مشتركة بين العالم المفارقيّ والعالم الواقعيّ. وعليه يمكننا أن نتساءل: ما دلالة توظيف بوطاجين الحيوان في أعماله الحكائيّة؟ وما أبعادها الفكرية والفنيّة؟

الكلمات المفتاحية: مفارقة الحيوان، تمظهرات الحيوان في أعمال بوطاجين الحكائيّة، الدّلالة الفكرية والجمالية للمفارقة الحيوانية.

أولاً/ مهادٌ وتأسيسٌ:

من المعلوم في هذا المقام أنّ للحيوان حضوراً أسطورياً وسحرياً يمتدّ منذ أقدم الحضارات العابرة الغابرة، ويشغل الشّقّ الأرحب من تشكّلات الوعي والمخيّلة الإنسانيتين؛ اللّذين التحما براءة هذا النّوع من المخلوقات، وغموضه، بالقدر نفسه الذي التحما فيه بغموض الطّبيعة وأسرارها، وحوارها الغريبة وحوارها العجيبة؛ فالحيوان بجميع أنواعه - الأليف منها أو الشّرس المخيف - يُعدّ من أكثر المخلوقات اقتراباً من الإنسان، وملزماً له.

وهو ما يؤكّد البُعد الرمزيّ الذي سيكرّسه توظيف الحيوان، واعتماده عنصرًا سرديًا حكائيًا، ومحوّرًا تشويقيًا في كثير من الحكايات الشعبيّة، والأحداث الخرافيّة للسُّرودات البوطاجينيّة، وما يتبعها بعد ذلك من أنماطٍ سرديّةٍ أخرى أكثر نضجًا وتعقّدًا، وأكثر استيعابًا لمضمّرات الخطاب الترميزيّ الذي تزرع به الموضوعات الحيوانيّة البوطاجينيّة، وتفيض بمعانيه الثرة والثريّة.

تتشكّل المفارقة الحيوانيّة باعتبارها بديلاً ترميزيًا عن مباشرة اللّغة البشريّة، وصراحتها الفائضة؛ فهي الموضوع المُفضّل لجميع الخطابات غير المباشرة، أو بالأحرى غير البريئة، التي تطفح بما لا يطيقه الخطاب الإيديولوجيّ المباشر من إحياءات وإيماءاتٍ يصدم أغلبها منظومة الثوابت السائدة، ويقترح تماسك أعمدها.

في قصص الحيوان لا يقدّم السارد نصائحه السياسيّة إلى الحاكم والرعيّة في صورة نظريّة وعظيّة، وإنّما يقدّمها في صورة رمزيّة سرديّة تتصلّ بواقع المجتمع وظروفه السياسيّة التي يعيش فيها المؤلّف، والتي يتمرّد عليها، ولكن لا يتمكّن من التمرّد إلا عبر الحكّي الرمزيّ أو القصّ على لسان الحيوان، فعن طريق حيل الحيوان أو القول والفعل على لسانه يتمكّن الكاتب من تجسيد ما يريد؛ بل ويتجرّأ على هجاء ونقد الواقع السياسيّ المؤلم، ليكشف زيف السّلطة الهزليّة، فيبثّ ضيقه، وسخطه وثورته، داخل حكايات مغلفة بالرمز، ليؤمن حسن العاقبة من جهة، ويحقّق هدفه المنشود من جهة أخرى.¹

وعلى هذا الأساس نجد أنّ الشّخصيّات في قصص الحيوان ترمز إلى طبقات المجتمع المختلفة، وما به من رؤساء ومرؤوسين فلا يأتي السرد لمجرّد التسلية، أو قتل وقت الفراغ، أو للتندرّ والتفكّه الساخر؛ وإنّما هو دعوة على لسان الحيوان نحو الإصلاح الاجتماعيّ والسياسيّ والأخلاقيّ.²

والملاحظ أنّ السارد يلصق بشخصه الحيوانيّة صفات عرفها النّاس عن هذه الحيوانات من خلال احتكاكهم بها، الرّمز إذا لا يقابل في استعماله ما هو شائع ذائع عند النّاس، كلّ حيوان يأخذ توصيفًا محدّدًا لا يتعداه، يوافق صورة تواضع عليها النّاس، ولو بحثنا مثلاً في تراث الكثير من الأمم من حيث استعمالها للحيوانات باعتبارها رموزًا لوجدنا تشابهاً كثيرًا: (الثعلب رمز للحيلة والمكر)، (الثور رمز القوّة الجسميّة والغباوة)، (الأسد رمز الشّجاعة والقوّة)، (الحمام رمز الوداعة والسّلام). وفي التّراث الشعبيّ المتعلّق بالحكايات المتداولة أو الأغاني أو الرقصات والعادات والتقاليد نجد أنّ توظيف الحيوان في بعده الرمزيّ لا يخرج عن قانون منظمّ لتشغيل الرّموز، ينطلق من مبدأ التّطابق التّقابليّ بين الرّمز وما يرمز إليه؛ فلا يلصق بالرجل الجبان المتخاذل رمز الأسد، ولا بالغبيّ رمز الذّئب أو الثعلب ... هناك إذا أعراف منظمّة لتداول هذه الرّموز تقوم على الملاءمة والمواءمة بين المتقابلين: الرّمز وما يرمز إليه.

إذن فـ "حكايات الحيوان فنّ، بقدر ما يمتاز بطرافته، يطرح غرائبيّته أو عجائيّته وكأنّها من بداهة الأشياء ومن طبيعتها ..."³ و"بواسطة هذا الاستعمال الرمزيّ في توظيف الحيوان لإنتاج المعنى، من خلال زرع القيم

وتدريب النفس وتصريف أزماتها وصراعاتها، ينقل الإنسان من الإنسان الحيوان إلى الإنسان الآدمي المنخرط في المنظومة الاجتماعية الضابطة للحياة اليومية والواقع النفسي والمادي للأفراد⁴

وقد أطلق عليه الدكتور (محمد التونجي) تسمية: (أدب الحيوان)؛ وعرفه بأنه: " عبارة عن قصص رمزية يحرك كاتبها حيواناته كما يشاء، وينطقها بما يريد، وهدفه من ذلك قول ما لا يستطيع قوله على لسانه، أو على لسان إنسان آخر؛ لظروف تمنعه من التصريح"⁵

ثانياً/ مظهرات المفارقة الحيوانية في السردنة البوطاجينية:

تتمظهر المفارقة الحيوانية في السردنة البوطاجينية في حكايا القصص المسيجة بأحبال الظاهر والضمير، فنلاحظ أنّ الأضمومات ظاهرها سرد رمزي لهوي، وضميرها نصح سياسي حكيم. والمفارقة على لسان الحيوان هنا تقوم على التلميح والتصريح في الوقت ذاته؛ فالظاهر/المسرود شيء، والضمير/المقصود شيء آخر. وهكذا تجري السيرة البوطاجينية عبر الحكيم الحيواني؛ من خلال وجود شخوص حيوانية ظاهرة في مقابل شخوص إنسانية ضامرة. فكأنها تتسردن وتتسرطن وتتأنسن وتتألسن بلسان الراوي/الذات البوطاجينية. " والراوي يقنعنا - أو يوهمنا - أننا أمام شخوص إنسانية تتبدى في صورة حيوانات تتصرف وتتكلم وتجادل كما يفعل الإنسان. وظاهرة أنسنة وألسنة الحيوانات ظاهرة قديمة شرطها الأهم أن يلتزم بها النصّ كأنها واقع حقيقي"⁶

لجأت الذات البوطاجينية إلى عوالم الحيوان لأنسنة حياتها من جهة، ولإفضاء وإضفاء أبعاد دلالية خصوصية أعمق علاقات الناس بتمثيلها بالعلاقات السائدة بين الحيوانات، إمعاناً في فضح الزيف المتسرطن والمتسردن في علاقات الإنسان بأخيه الإنسان، من مكرٍ وغدرٍ وقهرٍ وجشعٍ وطمعٍ وقمعٍ. إنّ أنسنة عالم الحيوان ممزوجة بجرجعات من السخرية الضامرة تنحو منحى التعرية والكشف، تعرية ما يُمور تحت السطح من قمعٍ وطمعٍ وقهرٍ، بغية تفكيك وخلخلة أسرار السلطة والسيادة وممارستها المتوالية والمتواترة في الإخضاع عن طريق الحقرة والتهميش، ولهذا تتوالى الرموز مشتركة بين العالم المفارق والعالم الواقعي. وفي أضمومة (الوسواس الخناس) يرسم لوحة ساخرة للتطاحن والتناحر الطبقي والاجتماعي بين الفئات والشرائح، " كان عبد الوالويقف مندهشاً أمام تلك اللوحات الفاتنة التي سمع عنها في الخرافات والأساطير والقصص السحرية، جرذان وقطط في هدنة أبدية. في صباه قالت له جدته إنّ نوحاً عليه السلام أخذ في سفينته من كلّ شيء زوجين، ولم يبال بالقطط والفئران، ومرة عطس الأسد فنزل الفأر، ثمّ عطس فخرج القطّ يعدو وراءه وولدت العداوة: " أين أنت يا جدتي الرائعة؟ أين حكاياتك؟"⁷

ومن هنا لا تختلف حكايات الحيوان عن غيرها من الحكايات؛ فهي بدورها تهدف إلى إعطاء دروس الحياة وقواعد السلوك داخل الجماعة. ولهذا فكلام الحيوان ليس سوى كلام الإنسان، بحيث يغدو الحيوان مجرد قناع يختفي وراءه الإنسان لبثّ نظام الأخلاق والمبادئ النبيلة والقيم الجليلة، وذلك من خلال تعليق المواقف على الحيوان المستعار للغرض المطلوب. وعليه فإنّ لسان الحيوان في الحكيم البوطاجيني هو لسان

الإنسان، ولذلك يناظر الحيوان الإنسان من خلال عكسه لمجمل السلوك الاجتماعي ونظام الحياة العائلية. وهنا تتعالى موضوعة المفارقة الحيوانية. يقول في أضمومة (مذكرات الحائط القديم): " لو تعلم يا ولدي، سيّدنا سليمان كان يفهم لغة الحيوان والطير، قالوا إنه كلم النمل، قالوا إنه كان يحزن عندما تموت الهائم، الناس عريان كل واحد ينظر لكرشه، ما يظن العبد حتى تنور الملح في البحر".⁸ كما يقول في أضمومة (جمهورية الملوك والحيطان) " كيف حالك يا صديقي نقار الخشب، وأنت أيها الوروار، وأنت أيها الغراب البهي، وأنت أيها الحلزون؟ هل أنتم بخير في ربيع الوحدة والغابة؟ مذ جاء هذا الابن حرام هاجرت الفصول وجاء المسخ. لا داعي للمجيء إلى قريتنا اللعينة التي ترى كل ما يطير شواء على الجمر. لا تزقزق يا طائر الحسون البري، سيكتشفونك اليوم أو غدا. إنهم ليسوا بحاجة إليك لأنك لست مسؤولاً، لا شيء لك سوى الموسيقى، لست شطيرة ولست مديراً عاماً في شركة الغاز. لو كنت مكانك لتوقفت نهائياً عن الغناء لهم، إنهم لا يستحقونك. كلهم. وجوه البؤس هؤلاء، ها هم متكئون جميعهم ويحلمون بالمستقبل الأفضل كأكياس النخالة، برؤيتك مشوياً في وليمة".⁹

وهكذا فإن المعرفة بلغة الحيوان في الحكى البوطاجيني تختلف عن كلام الحيوان في الحكايات التي تدور أحداثها على لسان الحيوان؛ حيث يستعير الإنسان عن نفسه بالحيوان ليجعل منه بديلاً فنيّاً مفارقياً يبت من خلاله شيفرته الأخلاقية المراد تبليغها (قالوا إنه كان يحزن عندما تموت الهائم) كما هو شائع وذائع في بدائع كليلة ودمنة وسائر حكايات الحيوان ذات الهدف الأخلاقي التعليمي.

ومن اللافت أن " النصّ البوطاجيني " حظي بنصيب وافر من قصص الحيوان بهدف الأنسنة كوجه من وجوه الهروب من الواقع؛ حيث أفردت تسريدهاته لجملة من القصص التي جاءت متناثرة، والقارئ لنصوص بوطاجين كما يرى الباحث (حسين خالفي)^{10*} يلاحظ استعماله المتواتر للمفارقة الحيوانية، ففي أضمومة (وللضفادع حكمة) نقرأ: " تتأكل لتعطي تفسيراً للمواء والخير ووصمت الهيم"¹¹. ونقرأ أيضاً " انظروا لحالتكم غنم والذئب الراعي"¹² ونقرأ أيضاً: " أصبحنا جنازات حية والحمار يعلم"¹³ " هل مات وحزنت عليه السماء والطيور يا نانا"¹⁴. ثم كتبت عن كل شيء عن لا شيء، عن النملة والمخلوقات الفاسدة وأحبّتي العناكب (...). لكن البرجفت للتو وفرأبناء سليمان البوهالي صائحين: إنه من هذا القرن. لست من هذا العفن، الآن لا أدري ما أفعل وقد عفت المدن وعافتي الضفادع. أعوي أم أنبح أم أنق أم كيف حالكم؟ النجدة يا جدّتي الراحلة"¹⁵. فالكاتب إلى جانب إلحاقه الحكمة بالضفادع، نجده يلحق العلم بالحمار بما آل إليه الناس، ويلحق الحزن بالطيور والسماء (مفارقة الجماد) ويكتب عن النملة، وتحبّه العناكب، وتعافه المدن (جماد يتعلّق بالبشر) كما تعافه الضفادع، فلا يدري أيعوي أم ينبح أم ينق فيستنجد بالجدّة الراحلة (الجدّة الإنسان) لعلّ الغرض الأساسي للكاتب من وراء توظيف مفارقة الحيوانات والجمادات كمحاولة للفرار من ذلك الإنسان (الشّرير) إلى إنسان أو كائن آخر (خير) مسالم وكأنّه يوازي بين حكمة الإنسان الطيّب (الجدّة) والكائنات المسالمة (الضفادع – العناكب - النمل ...) بغريزتها، مع ذلك الإنسان الشّرير بعقله، فالغريزة تغلبت بحكمتها على العقل بجهله، والنقيق أنطق من لغة الإنسان، وهي رؤية تنم عن نزوع صوفي للكاتب يتعالى عن ذلك الإنسان الشّرير، ليعانق عالماً آخر ويؤنّسّه هو عالم

الحيوان والحيوانية؛ الذي يسبح لله الخالق فيلامس الحكمة دون الإنسان، ويتوطد هذا الحكم أكثر إذا نظرنا إلى سياق القصة الداخلي، حيث نرصد في المقدمة الآتي: "أيها القارئ الذي لا تعرفني. يكفي أننا إخوة وأمنّا الأرض شاهدة. هذا أنا؛ متعب من وقتي وميتي ولست فخورًا بانتمائي لسلالة متوحشة. أجد متعة غريبة في السخريّة ميّ ومن الذين يسخرون ميّ".¹⁶

تشعّ حياتنا اليومية بخطابات متنوّعة تجاوزت الأدميّة تعرف بأنسنة الحيوان كوجه من وجوه الهروب من الواقع، وهذا ما نجده في تسريعات "بوطاجين"، ويأتي في طليعة هذه الحيوانات المستأنسة "الحمار"؛ كونه الأضعف الذي لا يقوى على المقاومة، والخادم الأول الصادق للإنسانية الصّابر على اضطهادها والمتحمّل لحماقتها وغبائها، وبصفاته النبيلة والجليلة تعلّم منه الإنسان ما لم يكن يعلم: "إنّ هذا المخلوق المحترم معلّم كبير للبشر لولاه لما عرفوا معنى الصّبر والهدوء والوداعة ... وكثير من الصّفات الأخرى التي نجدها في البلاغة الكلاسيكية والتي تعتبر من الصّفات المثالية أي الخيالية وحين يحقّق البشر هذه الصّفات يكونون من الصّنف الرّاقى الرّفيع المنزّه، لا يعرف الطّمع والعدوان والخيلاء"¹⁷ جاء في مجموعة (وفاة الرّجل الميت): "... والحمار؟ سألتها). الحمار يذهب إلى السّوق يا ولدي. لا بدّ أن الأمر غاضبي، إذ طالما تعاطفت مع الحمار نتيجة عينيه الوديعتين كحقلين من الكرز المطمئن، غير أنّي أحجمت عن الاستفسار خوفا من العصا، لقد تذكّرت ما قلته لجديّ مرّة بعد ما فرغ من صلاة العشاء. - جديّ، هل يجوز أن نسب الحيوان؟ - محال يا بني، الحيوان مثلنا، بل أفضل، إنّه ميسور ولا يطلب، لا يسرق، ولا يحرق، هكذا خلقه الرّب العالي. لماذا قلت في صلاتك: إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير؟ صفة واحدة كانت كافية لتخليصي من الأسئلة الخطيرة ..."¹⁸ وتزداد محاباة السّارد أكثر لهذا الحيوان، من خلال تمّي شخصيّة (أحمد الكافر) لو خلقت حمارًا. فهذه تتمم في أضمومة (سيجارة أحمد الكافر): "ليتني خلقت نحلة أو حمارًا على الأقلّ"¹⁹ لما يرمز إليه الحيوان من وداعة ولطف وطهر. والأمر سيان بالنسبة لما جاء مع شخصيّة (عبد الوالو) في أضمومة (السّيد صفرفا صل خمسة): "صاحبي الكافرتاب لتوه وفاضت عيناى بالصّدع، بالسّعال قلت؟ ووددت إمساك نجمة، امألها بالدموع والجهل وأرسلها إلى مالك يوم الدّين لينتبه إلى حالتنا، ليقضي علينا دفعة واحدة ويستخلفنا بأمة من الحمير بعدما عثنا في الأرض فسادًا ناسين قانون الحركة، خاضعين لجاذبيّة الإطلال"²⁰. والذي تمّي هو كذلك استبدال الأمة الأدميّة التي تعبت وتعيث في الأرض فسادًا بأمة من الحمير.

كما يقول (بوطاجين) في أضمومة (جمهورية الملوك والحيطان) من مجموعة (للأسف الشّديد) "هاهو الجنرال. السّلام عليك أيّها الحمار المبعجل، شرف كبير لي أن تردّ على سلامي بأفضل منه، وإلى اللّقاء يا سيّدي الفاضل. لا أريد أن أنقص عليك حياتك أو أضيع وقتك، وعندما نلتقي غدا، بعد إذنك. سأحدثك عن هؤلاء الذين يحتقرونك. أنت كائن عظيم في عليانك، أفضل ميّ ومنهم. اهرب قبل أن يصلوا إليك مدّججين بجوعهم الكثيف أيّها التّورانيّ. يجب أن نجلس معًا، نترافق في هذا الخراب ونتحدّث أو نبكي. أنا مدين لك، منك تعلّمت بعض الحكمة، وعليك أن تعلّمني التّواضع لأنسى هيئاتهم. أنت أولى بالاحترام والطّاعة ... شكرًا على الاستماع إلى حماقاتي بنباهة الفلاسفة، ومعدرة على الإزعاج"²¹

وهكذا يسمو بوطاجين بالنموذج الرفيع (الحمار) ويُطخ بالنموذج الوضع (الإنسان)، فكأنه يُسزّدن ويُؤنسن ما لا يؤنسن، وهنا تتعالى المفارقة الحيوانية. وببرة تقديرية متميزة نجد بوطاجين يعلي من شأن الحمار؛ إذ نجده يقول في أضمومة (من فضائح عبد الجيب) على لسان الفتى الصغير: «...وها هو حمارنا العبقري، مغني البلدة الذي كان ينهق نهيقاً موزوناً ومقفى كلما رأى مسؤولاً يتفقد التماثيل والإنجازات الوهمية، وكان جدي يقول لي دائماً: إذا نهق الحمار فقد رأى منكراً، وظللت أردد في مخيلتي: صدق الحمار ولو كذب. ومع الوقت أحببت التهيق ورحت أقلد معزوفة هذا الحيوان الأنيق، لكي لم أفلح، كنت أنهق كالعباد فأقلعت متأسفاً لفقدان جزء من مستقبلي...»²² وبهذه البرة التقديرية لتوصيفة حمار هذا الفتى الصغير نجد الذات البوطاجينية تسخر من تلك الطبقة الفوقية المسؤولة والمشلولة، بلغة الحيوان لا الإنسان الغائب والمغيّب.

هذا ونجد (الذئب) يتمظهر تلميحاً وتصريحاً في أدغال نصوص بوطاجين التسيديّة، ورائحته تهبّ على مخيلته وذاكرته ممزوجة بروائح النصوص الأخرى، تلك النصوص التي كان الذئب فيها، فاعلاً من فواعل السرد، وبؤرة من بؤره المتوترة.

وهكذا ينجح تفاعل هذه النصوص في الكشف عن قطيع من الذئاب يمتدّ عبر الزمن، ويغذي سرودات بوطاجين بأصداء وتشفيرات تؤكد أنّ زمننا قد يفوق في همجيته وغدره، ذئاب البراري جميعاً. إنّ تسريدهاته تكشف في أضموماتها عن هذا المغزى؛ حين يتمظهر هذا الذئب على لسان الذات الساردة وكأنّها "حمل بين تلك الذئاب".

وهكذا، فإنّ الذئب في السردنة البوطاجينية لا يتحرك بمنأى عن ذئاب النصوص الأخرى، كما أنّ مفهمته ودلالته في هذه النصوص والأضمومات، لا تتشكّل بعيداً عن تموج تلك التشفيرات والتداعيات التي أضفتها النصوص المختلفة على ذئابها، أو أضفاها كلّ سارد على ذئبه الخاص.

لم يأت توصيفه الترميزي إلى الإنسان بالذئب جزافاً؛ فهو يعيش في مجتمع فيه الاعتداء والاستلاء والسلب والتهب، واستغلال حاجة الفقير. والتي يشترك معها في توصيفة واحدة أو غير توصيفة.

ويأتي ذكر بعض الحيوانات من باب الحنين إلى الماضي الذي كانت تمثّل فيه هذه الحيوانات حضوراً متميزاً قبل أن تحذف الحضارة الحديثة بآلاتها وأجهزتها العصرية التي قلّصت كثيراً من حضور الحيوان في الحياة الزراعية. "صرت مقيماً في ورفعت المعثرة من الحلم والرؤيا. صرت مشروع نبي مّي إلي. ومعجزتي الوحيدة أنّي اكتب رماداً بهيئاً. أرسم شعباً من الذئب ذئبا من الشعب وشيئاً عصياً. وعندما أغفو قليلاً يسطو الجميع عليّ. القصر واللاشعب والمواثيق والدنيا. فأعود إليّ وحيداً نسياً منسياً متعباً جداً مطوياً"²³

وفي قوله: "بعض الشجر أحسن من البشر وبعض البشر حرجل الحجر أظهر. قلت لي إنك تريد أن تشوي الذئب حيّاً؟ هذا الذئب لم يظلم أحداً لم يسرق ولم يذبح ولم ينافق ولم يؤلف حرباً، جاع فأكل وتعب فنام وهذا من حقّه. الذئب ليس مذنباً مثلنا نحن نأكل ولا نشبع لا ثقة فينا ولا بركة هو رفض

الجاذبية الأقوى وتوحد في الغابة إنه مخلوق ثوري في لغتك الصغيرة كدُمية...²⁴، يكشف الكاتب عن الإنسان السلبي ومدى يأسه وقنوطه منه ... وهذه السلبيّة الأدميّة لم تتوقف عند هذا الحد بل تعدّته إلى مستوى اللّغة؛ إذ يصبح ألعبوبة صغيرة أشبه بالدُمية "أنا أعرف هؤلاء، أنت حاربت الأعداء وآباءهم الذين كانوا أصدقاء للأعداء، وهامهم الآن، كأننا لم نفعل شيئاً. كنّا نلعب الغميضة مع الغزاة، وعندما استيقظنا وجدناهم في كلّ مكان، إطارات ومسؤولين كبارا يترّبعون على العرش رفقة ماضيمهم."²⁵

يقول أيضا: "... منذ زمان والكلمات مليئة بالذئب، يخرج الذئب من الكلمة ويفترس برا من النفط، يخرج من الحرف بعينين حمراوين وفي يده مصيدة أو سيف وها إنك ترى بنفسك، الإسمنت الذي زحف علينا ليس لنا، الضوء الذي يمر من هنا يذهب إلى هناك، التمر الذي يتلأل تحت أشعة الشمس كعناقيد من الملائكة ليس لنا، ليست لنا المشاريع القادمة بعد أجيال. استعدنا النظر، بنينا نفق الأنفاق لمداواة المصابين بالكهرب المحاييد، خبأنا العلماء خوفاً عليهم من الانتشار السريع للأمعاء في كلّ السلطنة."²⁶ والمعان لهذا المسرد يجد توليفة مفارقة ساخرة على لسان الحيوان (الذئب) الذي يرمز للخداع والمكر لفئة الأمعاء والبطون التي لا تشبع (الانتشار السريع للأمعاء في كلّ السلطنة)، وسرعان ما تقتنص فريستها (في يده مصيدة أو سيف) من خلال بُور لغويّة مُلغمة ومفخخة ومنمّقة لتمرير خطاباتها ودعاياتها السياسيّة ومصالحها الشخصيّة. لكن سرعان ما تنتفض الذات الساردة بنبرة تهكميّة ساخرة على هذه الممارسات الدنيئة والوضيعة من خلال حثها على إيجاد الدّواء المناسب لهذا الدّاء الكبير، داء البراميل والبطون الكبيرة. "بمرارة حدثتني عن الكرش وهذه الأمعاء التي تقزّزك، كنت أضحك عندما تقول لي: أنظر هذا المعى كيف يتكلّم. هل فهمت ما تقوله هذه الأمعاء المجتمعة؟ معي بربطة عنق، معي ذاهب إلى السلطنة. معي يضحك بلا سبب، معي بشوارب ومشط. هذا الذّباب. هذا الطنين، هذه المستنقعات. هذا الوحل، دوي الأمعاء، فرقة المعدّة، متعب .. متعب .. لا يوجد أدنى تناغم هنا، لا أرى الإنسان هنا، معي يصافح معيّا، أشعر باختناق متزايد. أتنفّس على مضض، دودّ ... دودّ ... دودّ ... لماذا لا يسكت هؤلاء؟ لماذا تدّعي الأمعاء أنّها ليست أمعاء؟ من تكون إذن؟"²⁷

الإحالات والتهميش:

¹ مجموعة مؤلفين: فلسفة السرد، المنطلقات والمشاريع، إشراف وتنسيق وتقديم/ اليامين بن التّومي، ط1، منشورات ضفاف والاختلاف، بيروت والجزائر العاصمة، 2014م، ص181.

² المرجع نفسه: ص182.

³ محمّد حجّو: الإنسان وانسجام الكون، سيميائيّات الحكى الشّعبي، ص257.

⁴ المرجع نفسه: ص258.

⁵ محمّد التّونجي: المعجم المفصّل في الأدب (جزآن)، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1993م، ص45.

- ⁶ ناصر عبد الرزاق الموافي: القصّة العربيّة ... عصر الإبداع، دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع الهجريّ، ط3، دار النشر للجامعات، القاهرة، 1997م، ص118.
- ⁷ السّعيد بوطاجين: وفاة الرّجل الميّت، ص42.
- ⁸ المصدر نفسه: ص70.
- ⁹ السّعيد بوطاجين: للأسف الشّديد، ص18.
- ¹⁰ ينظر أكثر إلى/ حسين خالفي: البلاغة وتحليل الخطاب، ص192 – 193.
- ¹¹ السّعيد بوطاجين: اللّعة عليكم جميعًا، ص102.
- ¹² المصدر نفسه: ص105.
- ¹³ المصدر نفسه: الصّفحة ذاتها.
- ¹⁴ المصدر نفسه: ص106.
- ¹⁵ المصدر نفسه: ص110.
- ¹⁶ السّعيد بوطاجين: اللّعة عليكم جميعًا، ص07.
- ²⁷ حتّا عبّود: البلاغة من الابتهاال إلى العولمة، ط1، من منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2007م، ص70.
- ¹⁸ السّعيد بوطاجين: وفاة الرّجل الميّت، ص76.
- ¹⁹ السّعيد بوطاجين: ما حدث لي غداً، ص137.
- ²⁰ المصدر نفسه: ص32.
- ²¹ السّعيد بوطاجين: للأسف الشّديد، ص17.
- ²² السّعيد بوطاجين: اللّعة عليكم جميعًا، ص23.
- ²³ السّعيد بوطاجين: ما حدث لي غداً، ص74.
- ²⁴ السّعيد بوطاجين: اللّعة عليكم جميعًا، ص111.
- ²⁵ السّعيد بوطاجين: للأسف الشّديد، ص75.
- ²⁶ السّعيد بوطاجين: أعوذ بالله، ص207.
- ²⁷ المصدر نفسه: ص210.